كاملة الأهلية.. ولكن..؟؟

هيـــام عبد العزيـــز(*)

أ. مقدمة:

لا تـــزال قـــضية المـــرأة مـــن أهم القضايا التي تشغل بال كلٍّ من الرجل والمـــرأة علـــى الـــسواء، بحـــيث لا يمكـــن بحـــال من الأحوال تجاهلها أو غـــض النظـــر عـــنها أو عـــن تأثيـــراتها فـــي الحـــياة الثقافـــية والسياسية والاجتماعـــية لأنهـــا لـــم تحـــسم بعـــد فـــي جميع دول العالم. وهي من أهم القـــضايا التـــي انقـــسمت حـــولها مجتمعاتـــنا العربية إلى مؤيدين ومتحفظين ورافضين.

فعلـــى الـــرغم مـــن القـــيمة الكبرى المترتبة على مساواة المرأة بالرجل وعلـــى عمـــل هـــذه الـــرئة المعطلـــة بكـــل طاقاتهـــا بحيث يتنفس المجتمع بطـــريقة صـــحية، إلا أن هـــناك الكثيـــر من الرجال يضحون بكل ما سوف يعـــود علـــى المجـــتمع والأمم من هذه الفائدة العظيمة في سبيل ممارسة لذة الاســـتبداد والتـــسلط والقهـــر، وفي أعدل الأحكام على هذا الموضوع – لذة التبعـــية، وهـــو مـــبدأ ذكـــوري يتلخص في استمتاع كامل برئاسة وقيادة من

(*).باحثة ماجستير-بقسم الفلسفة- آداب القاهرة. hayamabdelaziz@yahoo.com

هم أدنى في نظرهم لمجرد اختلاف الآخر، سواء كان هذا الآخر أضعف أو أقوى، فهو مواطن من الدرجة الثانية أو هو "جنس آخر"- على حد تعبير سيمون دي بوفوار- يختلف عن الجنس البشري الأول والأمثل الذي هو جنس الرجل بالدرجة الأولى. وهذه المشكلة لم تنشأ في زمن معين حتى نستطيع أن نحللها في إطار هذا الزمن أو مجتمع معين حتى يمكننا تتبع مشكلات هذا المجتمع التي تسببت في إنبات هذه المشكلة، إنما هي مشكلة تراكمية ذات رواسب ساهم فيها الجنس البشري كله، وتتطلّب منا تتبع الجذور الرئيسية لها.

٢. جذور السلطة الذكورية:

أ- المجتمع الأثيني:

إننا نواجه اليوم ميراثَ المجتمع الأثيني، والذي كان يكن كراهية واحتقارًا للمرأة ويضعها في مرتبة ما بين الرجال والعبيد! وظهر هذا في فكر أفلاطون وأرسطو حيث تظهر النساء في حالة أفلاطون في دور ثانوي بسيط، أما عند أرسطو فهن مستبعدات تمامًا من مجال الحياة العامة، فقد وجدت النساء فقط بهدف المحافظة على استقرار المجتمع. "وخطورة نظرية أرسطو أنها ترددت كثيرًا طوال العصور

الوسطي مسيحية وإسلامية"[1] وبعد ذلك خاصة في مجتمعنا العربي لأنها متفقة مع ميراثنا الثقافي، والدوجماطيقي الصلب غير القابل للتغير دون صهره بنيران الغضب ليتحول ببطء من الميل إلى الاعتدال.

ب- الفلسفة الحديثة:

واصلَ جان جاك روسو نظرة التراث الغربي كله إلى النساء، فجعل السيطرة المطلقة للأزواج على زوجاتهم مع الرغبة في فصل الجنسين حتى داخل المنزل، كما اقترح تربية أخلاقية للنساء مختلفة عن الرجال، ورأى أن الحرية و المساواة جوهرية للرجال فقط لكنها لا تناسب النساء.

"وذلك بعكس جون ستيوارت مل (١٨٠٦- ١٨٧٣م) الذي بدأ معه إنصافُ المرأة. ودعا إلى المساواة بين الجنسين. وهو أولًا من أعظم فلاسفة الليبرالية في القرن التاسع عشر، وثانيًا هو من أكثر المتحمسين للحرية والمدافعين عنها، وهو الدفاع الذي أثمر كتابيه " عن الحرية " و "استعباد النساء " وغيرهما"[2].

(1). إمام عبد الفتاح إمام: أرسطو والمرأة، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبـ١، ١٩٩٦، صـ ١١١.

(2). إمام عبد الفتاح إمام: "استعباد النساء"، صـ٨ -بتصرف- مكتبة مدبولي، طبـ١، ١٩٩٨.

ج- المجتمعات العربية:-

إذا كان الغرب قد عانى - كما سبق شرحه - من الميراث الثقافي المهين للمرأة، فإننا في المجتمع العربي أكثر معاناة من هذا الميراث القبلي المحدد لماهية المرأة في قالب جامد، في أحسن حالاته يسمح للمرأة بالتحرك داخل هذا القالب كأنها هلام أو مادة جيلاتينية تتخبط في جدران هذا القالب لكنها لا تتعداه أو تخترقه لأنه مصنع من مادة فولاذية مبطنة بجلد ناعم الملمس سميك ليمنعها من تسلقه أو ثقبه.

* دور المرأة في المجتمع العربي:-

إن المرأة في المجتمع العربي تعادل في عملها ثلاثة رجال بحسبة رياضية بسيطة، دعونا نفترض أن العالم نوع واحد، بالطبع يحتاج هذا النوع أو الفرد إلى عمل ليكسب قوته، ومأوى أيْ منزل يحميه، وهذا المنزل يحتاج إلى نظام يدعمه ويضمن له الاستمرار، أي يحتاج إلى موظف داخل المنزل بالإضافة إلى موظف خارج المنزل، هذا إذا ما تغاضينا عن تقسيم العمل داخل المنزل كما هو متبع مثلًا في الخارج: الطباخ للطهي وعامل الأرضيات متخصص لذلك العمل، ومسئول المشتريات لا يتعدى إلى عمل زميله مسئول العلاقات العامة وهكذا مع المقارنة بما تفعله المرأة داخل المؤسسة المنزلية ولكن دعنا نكتفي بدمجهم في وظيفة واحدة وهي متعهد البقاء الأسري.

أما الوظيفة الثالثة التي تحفظ بقاء النوع البشري، فالمرأة هي الموظف المسئول عن هذه العملية، والمستعد منذ بداية التعاقد لأن يكون مسئولًا عن هذا الصغير مسئوليةً كاملة منذ المهد إلى اللحد، فكل ورقة تسقط من عمر هذا الموظف تثبت مكانها ورقة يانعة في عمر الصغير.

نعم ثلاثة رجال أولهم يعمل خارج المنزل ليساعد على الإنفاق، والثاني يعمل داخل المنزل دون وجود لتقسيم العمل حسب المبدأ الذكوري، وثالث يعمل في وظيفة الإنجاب والإرضاع والتربية، ولم نذكر هنا أن كل هذا يندمج معًا في نسيج عاطفي رقيق ممتزج بحنان وعذوبة وملتحم بلذة التضحية والتفاني الذائب بماء الإخلاص.

٣. منطق التسلط الذكوري وجدلية العلاقة التسلطية:

إن التسلط الذكوري شعور باطني ينبع من فكرة الأفضلية أي إحساس أحد أطراف العلاقة بأنه الأفضل والأقدر على حماية كيان هذه العلاقة، وقد ساعد هذا الشعور وغذّاه ضعف الطرف الآخر واستكانته، حتى صدّق الغالبُ أنه الأحق بالقيادة، والأضعفُ بأنه يجب عليه الانقياد حتى لا يضيع في هذا العالم المفتقر للأمان، وهذا المعتقد بالطبع أدخله المتسلِّط علي المتسلط عليه، ولضمان استمرار هذه العلاقة ينسج المتسلِّط خيوطًا شديدة التعقيد مدعمة بمعتقدات اجتماعية وموروثات ثقافية، ولا مانع من لَوْي أعناق النصوص الدينية حتى

تخدم القضية، وتتشابك هذه الخيوط إلى أن تتعقد العلاقة تمامًا، هذه العلاقة العنكبوتية التي تعتمد على حبس الفريسة داخل الخيوط التي تتكون منها أوهن البيوت، ولكن يجدر بنا أن نذكر أن هناك نوعًا من العناكب يسمي الأرملة السوداء لأنها لا تنفك أن تقتل الذكر بعد التزاوج!!

فالعلاقة هكذا جدلية بين طرفين متسلط ومتسلط عليه، ومن فكرة الجدل (الذي يتكون من الفكرة التي تحمل بذور نقيضها، ثم نقيضها، ثم المركّب منهما) ينبثق مفهوم جدلية التسلط أي: التسلط الذي يشارك الطرفان في صنعه والإبقاء عليه، وهكذا تقوم العلاقة الجدلية بين المتسلط والمتسلط عليه، وتتطور في ديالكتيك صاعد في اتجاه واحد لا رجوع فيه بمعنى أن انهيار المتسلط انهيار نهائي، واستقلال وتحرر المتسلط عليه بداية لعهد جديد.

تبدأ هذه العلاقة منذ الطفولة وهي مرحلة تعلم ومحاكاة واستسلام إلى أن تنتهي بطفرة الانقلاب من النقيض إلى النقيض في فترة المراهقة. وتتمثّل في كل المجالات، فحتى في مجال القيادة أو الرئاسة لأي فئة من الناس، نلحظ المنطق ذاته في النشأة والارتقاء. أما من ناحية المتسلِّط فهو يبدأ تسلّطه من وازع سياسي أو اجتماعي أو ديني أو نفسي أو غير ذلك، ثم يتلذذ بالقيادة فتتحول أهدافه كلها إلى الرغبة في ممارسة الدكتاتورية.

والخلاصة أن الفكرة تحمل في طياتها بذور فسادها، فهي صيرورة التغيير الدنيوي وفقًا لقوانين الحياة، فلا ثبات في الطبيعة والمجتمع، وطبقًا لهذا يتولد داخل العلاقة بين الرجل المتسلط والمرأة المتسلط عليها إما استسلامٌ يؤدي إلى تشيؤ المرأة وطمس معالم أنوثتها، أو يؤدي إلى كبت ثم انفجار متأخر بعد فوات الأوان، أو رفض جزئي للتسلط ينتهي باغتراب المرأة داخل الأسرة، أو رفض كلي ينهي العلاقة.

* الاستقلال التام أو الموت الزؤام:

عبارة ثورية أطلقت كثيرًا في بدايات القرن الماضي ضد الاستعمار الإنجليزي، إنها ثورة النساء وإن كان قد طال وقت الإعداد لها وتأخر كثيرًا موعد انطلاقها، ولكن لا بأس فقد أعطى التاريخ للمرأة خبرة وتأملًا في الماضي، واستشاقًا لعبق تاريخ النساء اللاتي دفعن الثمن غاليًا لتنطلق ثورة النساء قوية كضربة قاضية لا مجال للتراجع عنها، إذًا لا بأس من طول مدة الإعداد التي آتت ثمارها في شحذ عقول نساء العالم وأرواحهن بروح الثورة النسوية، ولكن من مقولة أن الكبت يولد الانفجار تحولت المرأة إلى قنبلة موقوتة موجهة في كل اتجاهات التسلط والقهر، بدءًا من الرجل إلى المؤسسات وحتى الأعراف حتى بعض مذاهب الفكر الديني لن تسلم من شظايا القنبلة، والفتيل في يد اللاهي يعبث ويعبث به حتى يجذبه دون وعي في سبات الذكورية،

معتقدًا أنها -الذكوريةَ- درعه المصقول ونسى أن آلاف، بل ملايين الجنود المتدرّعين بها قد سقطوا ومن أول جولة؛ نتيجة أسباب كثيرة أهمها الغرور، والصلف، والعناد، والإهمال، وهذه الأسباب وغيرها هي مقومات نجاح ثورة النساء في مجتمعاتنا.

ويلزم بدايةً أن نتوقف ملـيًا لتأمل تطور الفكر النسوي في السياق الغربي، ثم الاستفادة منه بعد تأمل تراث وواقع المجتمع العربي والإسلامي، وذلك على مستوى كل من البنية والتاريخ، أي بالوقوف على البنية الذهنية للمذهب ثم تتبع تطور المذاهب في تتابعها التاريخي.

٤. النسوية في السياق الغربي:

أ-النسوية الأم(البِنْية):

يمكن القول بأن الفكر النسوي عمومًا يجد أساسًا نظريًا له في أطروحة الفلسفة الوجودية الأساسية، "الوجود يسبق الماهية"، فعن طريق التفكير بهذا المنطق يمكن دائمًا تحرير التكوين الإنساني الفردي من الحتميات البيولوجية والاقتصادية والنفسية وغيرها، وبالتالي إنكار ما يسمى بالطبيعة البشرية الثابتة وسابقة التجهيز، نلاحظ أن اضطهاد المرأة ينشأ دومًا من اعتبارها ذات طبيعة مباينة ومتدنية بالنسبة لطبيعة الرجل، واعتبار أن طبيعة الرجل هي الطبيعة البشرية على وجه الدقة والشمول في الوقت نفسه، إذًا فإنكار ما يسمى بالطبيعة البشرية السابقة

أو الماهية الإنسانية الثابتة يُفقد كل قول من الأقوال السابقة التي أدت إلى اضطهاد المرأة معاني المفردات وعلاقات السياق الكلي.

الوجودية في أساس انطلاقها صرخة لإنقاذ الفرد من الطغيان والسيطرة، طغيان الجماعة وسيطرة السلطة والتقليد الأعمى، فهي دعوة لكل فرد أن يكون شخصًا منفردًا متميزًا لا مجرد " فرد " في قطيع حتى لو كان قائدًا للقطيع، فإذا كان الوجودي يردد عبارة فولتير الشهيرة " كن رجلًا ولا تتبع خطواتي " فالحركة النسوية تردد " كن إنسانًا ولا تجبرني على إتباعك ".

لقد كشفتْ الفلسفة الوجودية بصفة عامة بالنسبة للإنسان كما كشفت سيمون دي بوفوار بصفة خاصة بالنسبة للمرأة في كتابها " الجنس الثاني " أو " الجنس الآخَر" أن المرأة لا تولد امرأة بل تصير امرأة، أي أن المجتمع يشكلها في إطار الأنثى. وهذه قضية بالغة الأهمية؛ لأنها تلغي ما يسمى بطبيعة المرأة – فهي طبيعة يشكلها المجتمع- كما إنها لا تجعل من المعطيات البيولوجية – رغم أهميتها – العامل الحاسم في تشكيل المرأة بل تعطي الأولوية للتربية والتنشئة الاجتماعية فهي بذلك تعارض النزعة الماهوية Essentialism التي تؤمن بوجود ماهية محددة وثابتة للمرأة، أي قوالب جاهزة لكل مولودة، فتجعلها طبيعة فطرية لا يمكن تغييرها.

فكما قالت سيمون دي بوفوار في كتابها " الجنس الثاني": "أحياناً وفي المناقشات المجردة أشعر بالغيظ من الجملة الأزلية المقصودة من الرجل يقول " أنت تعتقدين ذلك لأنك امرأة "، فيكون دفاع المرأة الوحيد هو التنصل من ذاتها فتتحول "أنا أعتقد ذلك فقط لأنه صحيح" وبالتالي تقوم بإخراج ذاتها من المناقشة حيث لا يمكن الرد بالقول: " وأنت ألا تعتقد ذلك العكس لأنك رجل؟! "[1]. وهكذا أوجزت سيمون في تجربة وجودية حوارية ما يجيش في الصدور. أليست هذه ثقافتنا ؟ أليس المعيار الإنساني المطلق هو الرجولة؟ والنساء هن الاستثناء ؟ لماذا ؟ لأننا تنازلنا قروناً عديدة واستسلمنا ثم حاولنا تغيير جلودنا فجاءت أشكالنا " مسخاً " Monster، أما جلدنا الأصلي النقي الفريد فهو التفرد والذاتية والحرية والاختيار، المسئولية واتخاذ القرار وهي أهم مبادئ الوجودية.

وهكذا فإننا واجدون أصول الحركات النسوية على اختلافها ملخصة ومركزة في الوجودية من هذه الزاوية، وهو ما قدمنا له بتأمل النسوية في الإطار الغربي على مستوى البنية، ذلك أن الحركات النسوية السابقة والمعاصرة والتالية للوجودية تنشأ من المنشإ ذاته ولها الأصل

(1). سيمون دي بوفوار: "النوع: الذكر والأنثى بين التمييز والاختلاف"، مقالات مختارة ترجمة: محمد قدري، مراجعة: إلهامي جلال، تقديم: هالة كمال، صـ١٧٧، المجلس الأعلى للثقافة، طـ١، ٢٠٠٥.

نفسه، وهو إنكار الماهية البشرية الأصلية، والتي هي براءة أصلية بالنسبة للرجل وخطيئة أصلية بالنسبة للمرأة.

ب-تطور النسويات الغربية(التاريخ):

تطورَ الفكر النسوي تطورًا بطيئًا فعّالًا في مسار الفكر الغربي بدايةً من الفكر الليبرالي، ثم الماركسي، ثم ما عُرف بالنسوية الراديكالية أو الحضارية، وأخيرًا ما عُرف بالنسوية السوداء ونسوية العالم الثالث، بالإضافة على ما يمكن تخصيصه من وضع متميز للفكر النسوي في السياق الإسلامي كما سيلي.

ولعلنا نلاحظ أن المركبات الفكرية الغربية الليبرالية والماركسية..إلخ كانت مركبات ذكورية المنشإ والتوجه والصياغة، غير أن الصراع الجدلي الذي سبق الحديث عنه بين أطرافها المتضادة هو ما حوّلها للاهتمام بقضايا المرأة باعتبارها قضايا مصيرية.

ب-١: النسوية الليبرالية:

تعد من أقدم التيارات النسوية ذات أفكار منبثقة من الفكر الليبرالي عامةً. "فتنادي النساء المنتميات لهذا التيار بالمساواة بين الرجال والنساء وإتاحة فرص العمل وتكافؤ الفرص والتعامل مع الوضع بنظرة واقعية. ويؤخذ على هذا التيار تبسيطه للأمور وتفضيله تخطي القضايا الشائكة مثل قضية الاختلافات الثقافية، والتحليل التاريخي

للمشكلات"[1]، وأيضًا المغالاة في المطالبة بالمساواة مما أدي إلى طمس الفروق الجوهرية بين الجنسين.

والجدل الظاهر في هذا المركّب هو أن الرجل حين طالبَ بمساواة الحقوق السياسية على مستوى الدولة لم يستطع استثناء بيته من لائحة المطالبات السياسية، فصار يطالب بمساواة المرأة بالرجل أيضًا كجزء من المساواة الشاملة، جزء ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه، وكان أهم أعلام هذا التيار من الرجال، وهو جون ستيوارت مل J. S. Mill في كتابيه استعباد النساء، وعن الحرية.

ب-٢: النسوية الماركسية:

" قامت أساسًا منبثقة من النظرية الاقتصادية الماركسية في مواجهة الرأسمالية المستغلة التي تقوم باستغلال النساء وحرمانهن من حقوقهن بحجة عدم الكفاءة وتشغيلهن بأجور زهيدة"[2].

والجدل هنا هو أن الرجل حين طالب بمساواة الحقوق الاقتصادية لم يستطع مرة أخرى أن يستثني الأسرة من مطالبه، فكل من النساء والعمال يعانيان من المأساة ذاتها في البيت والمصنع على الترتيب،

---

(1). دام موريس: "الأدب والنسوية"، ترجمة: سهام عبد السلام، صـ٨، المجلس الأعلى للثقافة، طبـ١، ٢٠٠٢

(2). المرجع السابق: "بتصرف" صـ١٠.

وكما يعمل العامل لدى الرأسمالي بأجر زهيد، تعمل المرأة لدى الرجل دون أجر تقريبًا، ذلك بالإضافة إلى أن المرأة العاملة صارت تشكل قوة اقتصادية لا يستهان بها من مجموع العمال فـ"...بحلول منتصف القرن التاسع عشر، خلقت الثورة الصناعية وثروة الإمبراطورية البريطانية جيشًا من النساء العاملات خاصة مصممات وبائعات القبعات النسائية والحائكات مع أقلية من عاملات المصانع وأغلبية من النساء الخادمات"[1].

"وازدادت أعداد النساء التي كانت تنضم للحركات الاشتراكية، الجديدة الضخمة، وكانت فلورا ترستان(١٨٠٣ - ١٨٤٤) من النسويات الاشتراكيات الأوائل، هي التي اكتشفت الاتحادات الحرفية المعروفة باسم نقابات العمال مما ألهمها كتابها الأعظم (اتحاد العمال)"[2].

وكان من أهم أعلام هذا التيار فريدريك إنجلز F. Engels في كتابه الشهير أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، بالإضافة إلى روزا لوكسمبرج وكلارا زيتكين وغيرهما.

---

(1). سوزان آليس، فريزا رويدا: "الحركة النسوية"، تقديم: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٥، صـ٦٦.

(2). المرجع السابق: صـ٩٣.

ب-٣: النسوية الراديكالية:

في هذه المرحلة المتأخرة انقلبت الصورة تمامًا فبدلًا من النظرة الدونية للمرأة "جاء التيار النسوي الراديكالي بالنظرة الدونية للرجل- (وذلك فيما عُرف بالموجة النسوية الثانية، فبدلًا من أن تطالب المرأة بمساواتها بالرجل صارت تطالب بالاعتراف بها ككائن(آخَر)متميز يباين ويتجاوز عيوب الكائن الأقدم أي الرجل)-فهو تيار متشدد يدعو إلى الانفصال عن الرجال وبناء مدينة للنساء فقط. وللأسف هو المنطق الذكوري نفسه ولكن من الطرف النسوي المناقض له، بتفضيل جنس على جنس مغاير له على أساس المعطيات البيولوجية"[1]. وخرج من هذا التيار السحاقيات والمترجلات وكارهات الأنوثة والأمومة وحارقات مستحضرات التجميل ومهاجمات مسابقات الجمال، فكان الأمر يبدو في بعض الأحيان أشبه بحرب عصابات، لأن التفرقة هنا لم تقم على المفاهيم الثقافية التي تحقق المساواة الإنسانية بصرف النظر عن الجنس أو اللون فقام بدوره على التمييز والتحيز ولم يقم على مبدأ الحرية والعدالة.

---

(1). المرجع السابق: صـ٩.

ب-٤: النسوية السوداء ونسوية العالم الثالث:

إن الاندماج بين هاتين النسويتين له وجوه عديدة مشتركة أولها أنهما "مضطهدتان من جانب المرأة البيضاء الغربية القائلة بأفضلية الثقافة الغربية على ما عداها من ثقافات، وفرضها على النساء الملونات بدعاوى مختلفة أبرزها رغبتها في النهوض بهن، ومن هنا كانت شريكة و محركة للرجل الأبيض في استعمار الشعوب واستعباد الملونين"(١).

ثانيها معركتها ضد الذكورية مع الفارق بين المجتمعات الغربية والعربية، والفارق أن النسوية السوداء تواجه صراعًا مريرًا مع الجنس الأبيض المحيط بها والمتحكم في اقتصادها ومسارها السياسي، وينطبق ذلك على الذكور في المجتمع الأسود فحدثت الهدنة بين المرأة السوداء والرجل الأسود بسبب الأوضاع المتردية في المجتمع الغربي للملونين، فكانت في مصلحة المرأة الزنجية التي سرعات ما أخذت حقوقها من الرجل ليوحدا الجبهة في مواجهة العنصرية الغربية والتي من أهم أسبابها عدم وجود مفهوم واحد للإنسانية.

أما نسوية العالم الثالث فالوضع الذي جاءت لمقاومته لم يكن أفضل بكثير وإن غابت العنصرية الاجتماعية داخل المجتمع، فنحن مجتمعات

---

(1). سوزان آليس، فريزا رويدا: "الحركة النسوية"، مرجع سبق ذكره، صـــ١٢.

لم تعرف التفرقة بين امرأة وأخرى على حساب اللون إلا فيما ندر، ولكن المعركة الكبرى كانت بينها من جهة والرجل والتقاليد والأعراف والمجتمع الجاهلي الذي بث سمومه في الجذور المكونة لسيقان وأوراق وثمار المجتمع العربي بكل طوائفه من جهة أخرى، فجاء الميراث حافلًا بشتى أنواع الاضطهاد والتحقير من وأد فكري، وسبي اجتماعي، وحرمان من الميراث المعنوي والمادي أحيانًا، وغير ذلك مع تخلف الفكر القانوني وانعدام مفهوم الحق الإنساني الطبيعي. جاء الإسلام ليرفع مكانة المرأة لأنها المضطهدة، فلم يأت مثلًا ليرفع مكانة الرجل المتخم بالعزة والمكانة الأفضل، ذلك لأن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾[1]، فهي مثلما تعطي لها أن تأخذ، فلا عطاء مطلقًا دون حقوق مصونة، ومن هنا نجد المدخل لمعالجة القضية النسوية في الإطار الإسلامي، بعد الاستفادة من الأمثلة الغربية والواقع المحلي المعاصر.

٥: النسوية في السياق الإسلامي:

تختلف قضية المرأة في السياق الإسلامي عنها في السياق الغربي في نقطة جوهرية، هي أن طرفي الإشكالية لم يعودا الرجل والمرأة كما في السياق الغربي، بل دخل الفكر الديني والفقه الإسلامي في المعادلة،

(1). { البقرة / ٢٢٨ }.

وذلك ارتكازًا على ميراث ثقافي جاهلي انعدم فيه الفكر الحقوقي من جهة، وميراث شرعي ونصّي أُسيء تفسيره والنظر إليه من جهة أخرى، مثل: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾، ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا﴾.

وللخروج من الأزمة يلزم النظر في التفاسير المقدمة لها، وفي الآليات الفكرية التراثية التي أنتجتْ آليات التفسير وما اعتمدت عليه من موجِّهات للعقل القارئ، ثم نقدها وتقييمها وتقديم مساهمة لحل ذلك التأزم دون خسارة الهوية المميزة للقضية، والتي تضيعها المعالجات التقليدية التي تسطّح القضية باعتبارها قضية مع الرجل بشكل سطحي ومباشر.

٦. منطق الحل:

إن الآية: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ مثلًا ليس يمكن فهمها بشكل سليم إلا في إطار نزعة المساواة والعدالة التي جاء بها الإسلام، فهذه الدرجة درجة في الفضيلة، وفي الخُلق، والإنفاق، وقدرةِ الرجل على حماية المرأة بدنيًا، وكل هذا يفعله الرجل بدافع الحب وبتوجيه من العقل والوازع الديني القويم. وفي رأيي ليس المقصود تحقير شأن الدرجة الأسفل. ويمكن فهم ذلك حين نرى أن المرأة مخيرة في الزواج مثلًا، فلا يجوز أن تتزوج كرهًا، وبذلك يكون لها شخصية مستقلة عن شخصية أبيها. وبعد الزواج لا تفقد المرأة اسمها كما في المجتمعات

الغربية ولا أهليتها في التعاقد أو الملكية كما كانت المجتمعات الغربية منذ زمن غير بعيد، أما ذمتها المالية عن زوجها فهي مستقلة، بحيث يجوز لها حرية التصرف في رأسمالها.

وأما قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا﴾[1]، فذلك إتمام لباقي حقوقها الخاصة بالميراث، حيث يرث الرجل ضعف ميراث المرأة لكنه يعود وينفقه عليها وعلى أولادها وبذلك يكون التكريم الاقتصادي مكتمل الأركان مع الاحتفاظ بكامل ميراثها والصرف عليها فرضًا، وبعض المفسرين القدماء رأوا أن القوامة ذات أساس اقتصادي يتعلق بالنفقة، يقول القرطبي في تفسيره(الجامع لأحكام القرآن):"فهمَ العلماء من قوله تعالى:﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قوامًا عليها، وإذا لم يكن قوامًا عليها كان لها فسخ العقد..،وهو مذهب مالك والشافعي"[2]، أما هي فتنفق باختيارها ومحض إرادتها ما تريد من مال الرجل وذلك من ناحية أخرى تعويض عن الضعف العضلي الذي يزداد في الكبر فتكون الأغنى والأقوى اقتصاديًا وبذلك يكون المولى عز وجل قد أكمل لها حقوقها وتساويها مع الرجل مع اكتمال حقوقها المدنية. فالتفضيل هنا لبعضهم على بعض جاء محددًا في موضوع

(1). { النساء / ٣٤ }.

(2). أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ص٢٨٠.

القوامة والإنفاق لأن الله فضل الرجل على المرأة في مضاعفة الميراث فجاءت الآية لهذا الموضوع موضحة إياه أن الرجال قوامون على النساء لأن الله فضل الرجال عليهم في مضاعفة المال الموروث، فيجب عليهم أن ينفقوا فرضًا عليهن، وتنتهي هذه القوامة بعدم الإنفاق لأن التفضيل هنا سيكون في غير محله أي لغير ذي صفة، لأن الرجل يرث ثم لا ينفق، أي أن هذا التفضيل جاء تبعًا لما فُرض على الرجل من التزامات أعفي الله منها المرأة. والله العادل لا يضيع أجر أحد ولا حقه، ولأن الإسلام منظومة اجتماعية متكاملة الأركان من قوانين وشرائع وسنن فلا يوجد حق مهضوم فيه لأحد والناس سواسية كأسنان المشط. ومن الجائز أيضًا أن تكون العصمة في يدها وأن تقوم بتطليق الرجل وخلعه متى أرادت..... !

وبعد النظر في تراثنا تأتي ضرورة استفادتنا من التراث النسوي الغربي بانتقاء المبادئ التقدمية والمتماشية في الوقت نفسه مع هوية القضية، وهي المبادئ المعتمَدة من وجهة نظرنا:

١- على النساء أن يطالبن بحقوقهن الكاملة كبشر.

٢- ضرورة التمرد على كل بني القوة وقوانينها وأعرافها التي تجعل النساء خادمات وخاضعات في المرتبة الثانية أو الأدنى للمجتمع.

٣- ضرورة تحدي تقسيم العمل في العالم الذي يجعل الرجال يتكفلون بالمجالات العامة- العمل، الرياضة، الحروب، الحكومة - بينما تكون النساء خادمات بدون أجر في المنازل.

٤- الإنصات إلى إنذار العقل الذي يتردد صداه في الكون كله يقول للنساء: اكتشفن حقوقكن فما عادت الإمبراطورية القوية للطبيعة الذكورية محاطة بالتحامل والتعصب والأكاذيب وسترين مدى هشاشة هؤلاء المتكبرين.

٥- بيان أن الفروق النوعية للمرأة فروق هامشية لا تجعلها أقل ولا تحول دون تلقيها العلم وممارستها العمل والحياة السياسية والتصرف في أموالها مثل الرجل.

٦- زيادة فرص الالتحاق بالوظائف وخصوصًا مهنة الطب.

٧- مراعاة حق المرأة في الانتخاب والتصويت.

٨- التأكيد على أن المرأة لا تولد امرأة بل تصبح امرأة أو تعتبر امرأة حسب المعطيات البيولوجية ومبادئ التصنيف الذكوري، والتفرقة النوعية الكامنة في اللغة، والأسس الاقتصادية الاستغلالية للمرأة من قِبل الرجل، والنزعة السلطوية، والتنشئة الاجتماعية التي وجهت ضد المرأة وصنعت لها القوالب الصلبة.

٩- التأكيد على عدم وجود ماهية أو طبيعة محددة سابقة على وجود الإنسان، وبالتالي إلغاء الطبيعة الهشة الملتصقة بالمرأة والتصنيف اللغوي الجنسي للصفات المحددة لطبيعة المرأة التي تميزها بالتدني عن الرجل.

١٠- ضرورة مقاومة سلطة العادات والتقاليد التي قد تكون في بعض الحالات أشد تأثيرًا من الدين بل قد تؤثر هي نفسها في الدين فيعترف بها وتصبح جزءًا منه، فجاءت المجتمعات الذكورية أشبه بالقطيع المكون من النعاج ويرأسه دائمًا أكثر الخراف وزنًا، بحيث لا يستطيع النظر إلى الوراء وتفقد الأحوال.

١١- تربية النشء على أن العاطفة والشعور والأحاسيس المختلفة ليست خاصة بالمرأة ولكنها لكل الجنس البشري، وجعلُ البكاء ضد سمات الرجل كجعْلِ التفكير ضد سمات المرأة وهذا خطأ فكلاهما إنسان وله المعطيات الإنسانية نفسها.

١٢- تربية النشء على أن كل فرد في صيرورة دائمة وتحول دائم، فهو ليس موجودًا ولكنه يوجد دائمًا ويعبر عن نفسه ويصبح شيئًا متفردًا، فالحياة مجهود دائم للانتصار على أنفسنا وتجاوزها والاتحاد بها وبالاختصار هي أن " نصبح أنفسنا"، فقبل الوجودية

بقرون قال سقراط عبارته الوجودية الشهيرة " اعرف نفسك بنفسك ".

٧. الخاتمة (المفارقة النسوية):

كما يقول هيجل: " إن كلًا منا هو ابن عصره وربيب زمانه، وإن الفلسفة هي عصرها ملخصًا في الفكر"[١]، وهذا واضح من الأثر الطاغي الذي كان لعادات وتقاليد المجتمع الأثيني والجاهلي وما خلفه من آثار دفعت ثمنها المرأة، ولكن ليس وحدها فتحجيم دور المرأة وقهرها أدى إلى تخلفها عن الإبداع، برغم كونها الأم والمربية، كيف تُعلَّم الشجاعة في ظل القهر؟ وكيف يُعلَّم الإبداع في ظل التبعية والشعور بالدونية في وسط تخاف فيه المرأة أن يراها الرجل ذات تميز أو استقلال فكري من أي نوع؟؟! الحق إنها برغم ما عانته أبدعتْ، ويكفي أن مُعظم وأعظم الرجال تربوا في كنف امرأة مقهورة مهضومة الحقوق، هذه هي المفارقة النسوية!!

(١). هيجل: "أصول فلسفة الحق"، صـ١١٦.